

الحضور الأندلسي في الشعر الفرنسي
شوقيات فيكتور هوجو⁽¹⁾ دراسة في نماذج
عائشة حمزة⁽¹⁾ د. عمار رجال⁽²⁾

1- جامعة باجي مختار عنابة، Aicha2018hamza@gmail.com

2- جامعة باجي مختار عنابة، redjel amaar@hotmail.fr

تاريخ القبول: 2020/01/15

تاريخ المراجعة: 2019/05/08

تاريخ الإيداع: 2018/05/23

ملخص

يطرح المقال موضوع حضور الأندلس واستدعائه لدى شاعر فرنسي، وهذا من خلال مجموعته الشعرية الشوقيات، وتحاول هذه المقاربة الوقوف على هذا الحضور من خلال نماذج شعرية من ديوانه الشوقيات «les orientales» ونتج عن هذا الحضور العربي الأندلسي تأثير في فكر وثقافة فيكتور هوجو، ففرنسا كانت السبابة في احتضان الموضوع الأندلسي بحكم عدة عوامل، وفي ضوء هذه المفاهيم سنعالج إشكالية حضور الأندلس كمرجع عربي في شوقيات هوجو الفرنسي.

الكلمات المفتاحية: مدينة، أندلس، شعر، شوقيات.

The Presence of Andalusia in the French Poetry Case Study of “Les Orientales” of Victor Hugo

Abstract

The article discusses the presence and evocation of Andalusia in the collection of poems of Victor Hugo “Les Orientales”. This approach tries to focus on this presence through poetic models of his collection of poems «Les Orientales». It was found that this Arab Andalusian presence in that period influenced the thought and culture of Victor Hugo because France was the first country to adopt the Andalusian theme due to several factors. In light of these concepts, we will deal with the issue of Andalusia presence as an Arab reference in “Les Orientales” of Victor Hugo.

Keywords: Andalusia, city, poetry, Les Orientales.

Le présence de l'Andalousie dans la poésie française Le cas des «Orientales» de Victor Hugo

Resumé

L'article traite de la présence de l'Andalousie dans le recueil des poèmes de Victor Hugo «Les Orientales». Cette approche tente de mettre l'accent sur cette présence à travers les modèles poétiques de son-recueil de poèmes «Les Orientales». Il s'est avéré que cette présence andalouse arabe durant cette période a fortement influencé la pensée et la culture de Victor Hugo car la France était le premier pays qui a adopté le thème de l'Andalousie en raison de plusieurs facteurs. A la lumière de ces concepts, nous allons aborder la question de la présence de l'Andalousie comme étant une référence arabe dans «Les Orientales» de Victor Hugo.

Mot-clés: Andalousie, ville, poésie, Les Orientales.

مقدمة:

قدمت الأندلس نموذجاً ثقافياً كلياً شمل العلوم واللغة والأدب والموسيقى والفن...، وشكّل هذا النموذج رمزا للتسامح بين الديانات المسيحية واليهودية والإسلام، ورمزا للتعايش بين اللغات العربية واللاتينية والرومانسية (romance) والعبرية واليهودية والإسلام، ولم يقتصر تأثير الثقافة الأندلسية على الثقافة العربية الحديثة بل امتد إلى الثقافة الأوروبية ابتداءً من القرن الثالث عشر، وتعود جاذبية الثقافة الأندلسية إلى جذتها وتتميزها، وكذا انفتاحها على الثقافات الأخرى.

يمثل النص الأندلسي نصاً مفتوحاً تقرأ من خلاله الأندلس في بيئتها وظروفها الأدبية والسياسية والاجتماعية والفكرية والعقلية قراءات مختلفة.

لا تزال الأندلس تسحر المؤرخين والمفكرين والأدباء وتبعث فيهم الحنين إلى حقبة القرون الثمانية التي شهدت الحضور العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية من عام 711 إلى عام 1492 م.

يذكرون مدنها الزهراء، قرطبة، غرناطة، اشبيلية، الحمراء وهي فردوسهم المفقود، ويمثل استرجاع الأندلس واستدعاؤها جزءاً من الذاكرة الجمعية للأمة وجزءاً من ماضيها واستحضر هذا الماضي شعرياً على لسان شعراء عرب وغرب ونخص بالذكر الشعراء الغرب وعلى رأسهم شاعر فرنسا الكبير فيكتور هوجو الذي أحب العرب وتأثر بالإسلام والمسلمين وخاصة بالأندلس الإسلامية وتاريخها واعتبرها الشرق المثالي.

ويعكس استدعاء الأندلس أنماطاً اجتماعية، ثقافية لا تزال قائمة حتى الآن، وتسجل بطريقة رمزية العلاقات الاجتماعية والثقافية التي كانت قائمة في فترات سابقة، ثم اندثرت واختفت،

وتمثل الأندلس فضاءً حضارياً عريقاً يضم ثروة من الرموز والأشكال والقيم التي لا تزال راسخة عبر الزمان والمكان العربي والعالمي.

حيث يلامس هذا المكان علاقة الأنا المتمثلة في ذات الشاعر والآخر، فعندما يحضر المكان في الشعر فهو يدل على علاقة الشاعر به، ويرمز في الوقت نفسه إلى الآخر المختلف يعبر عن رؤيته للآخر من خلال المكان، فلا يتمثل الآخر في الأشخاص فقط بل قد يتجسد في رمز من رموز ثقافة الآخر، أو في المكان الآخر الذي يبرز في الشعر ومثال ذلك الأندلس، ويمكن من خلاله تحديد موقف الشاعر من الآخر من خلال رؤيته للمكان وما يمثله من دلالات تتجلى في المتن الشعري⁽²⁾.

وللمدينة الإسلامية الأندلسية مكان في هذا الحضور على وجه الخصوص، نالت حظاً وافراً ضمن المدن العربية والإسلامية عبر التاريخ لمكانتها الدينية، والسياسية، والحضارية، والثقافية، والتاريخية، وعلى وجه الخصوص الأدبية.

وشكلت واحدة من الحلقات المهمة في التراث العربي بما قدمته للحضارة الإنسانية من تجارب غنية بالتعايش العرقي والتسامح المذهبي في ظلّ العرب والإسلام، ولقد تمكنت صورة الأندلس من نفوس الشعراء وأصبحت مصدر إلهام لهم، وكانت بالنسبة لهم الشرق الذي تطورت وتغيرت النظرة إليه ابتداءً من القرون الوسطى، فالشرق كصورة أو مفكرة أصبح هاجساً عاماً لفكر وخيال الغربيين، توجه وقع تحت تأثيره الشاعر فيكتور هوجو، فالألوان الشرقية انسابت تلقائياً وعلى وجه التحديد الشعراء الفرنسيين الرومانسيين الذين كانوا السباقين للحديث عن هذا الفضاء التاريخي العربي، ونخص بالذكر الشاعر فيكتور هوجو "victor hugo".

1- الأندلس والأدب الفرنسي:

1-1- تمهيد:

ترسخ الشرق في أدب القرن التاسع عشر الأوروبي بديلاً عن الكلاسيكية وانفصالاً عن فلسفة التنوير، ومهرياً إلى عالم الأحلام، ومدخلاً إلى الذاتية والتعددية في الموضوعات.

ولعل مقدمة الشاعر الفرنسي فيكتور هوجو في نص الشقيقات les orientales م 1829 تختصر هذا المفهوم للشرق في القرن التاسع عشر في أوروبا" في عصر لويس الرابع عشر كناً هيلينيين أما الآن فنحن شرقيون" ولم يقتصر أثر الشرق في رأي هوجو على مجال الخلق الأدبي وحده بل تعداه إلى الاهتمام به كموضوع قائم بحد ذاته، فالشرق لديه هو منبع الإلهام والخصب وقيمة جمالية قادرة على تغيير وجه الأدب والفن الأوروبيين.

لقد بدأ الشرق يجد طريقة إلى الأدب الفرنسي كموضوع أدبي بعد عصر النهضة، ونجد الروايات والتراجيديات التي تحمل هذا الاسم تفتقد إلى الصورة الأكويتيكية الجميلة التي عرفت فيما بعد ويرجع ذلك إلى قلة الموارد التاريخية أو الاجتماعية إذ إن اهتمام الفرنسيين بالرحلات الاستكشافية ما زال في المهد وقتذاك، وظل الأمر على هذا المنوال إلى أن بدأ التفكير الاستعماري يتفشى في سياستهم الخارجية من أجل تقوية الحكم والنظام بالموارد البشرية والاقتصادية كما كانت الحال في كل الدول المستعمرة. من جهة أخرى انتعشت العلاقات الدبلوماسية ونشط التبادل التجاري وازداد انتشار أخبار الأسفار في الصالونات العلمية ومجالس الأدب التي كان يتردد عليها المستشرقون والأدباء كصالون (مدام سابليير) الذي كان يتردد عليه الأديب الفيلسوف والمستشرق (فرانسوا برنيير) ومن الأدباء (جان دو لافونتين) في القرن السابع عشر - هذا الأخير أدخل في قصصه حديث الحيوانات كما هي الحال في كليلة ودمنة المأخوذة من الأصل الهندي (بنشا تنترا).

إن المتفحص لصورة الشرق في الأدب الفرنسي يجد أنها تختلف خلال القرون الوسطى تماماً عن الصورة التي نجدها في نهاية العصر الكلاسيكي في القرن السابع عشر وبداية العصر الرومنطقي في القرن الثامن عشر - المعروف بعصر النور إذ إن كراهية الشرق والشرقيين وصلت درجة عظمى في قلب الإنسان المسيحي لما تركته الحروب الصليبية من مشاعر عدوانية ضد "المحمديين"، لكن ما إن أشرف القرن الثامن عشر على البروغ حتى بدأت حركة تنشيد إحياء الشعور الأدبي الفرنسي في التعرف على العالم الشرقي إلى أن بلغ ذلك الاهتمام قمته في عام 1780 حيث توسدت العلوم الشرقية مكاناً مرموقاً بين سائر الدراسات الإنسانية في جامعات فرنسا المختلفة وبمراكز علومها المنتشرة في انحاء الجمهورية آنذاك.

عندما بدأ أن موضوع الأندلس قد استهلك في الأدب الإسباني، تولدت ظاهرة فريدة ومميّزة، فبداية من عام 1975، ومع وفاة الجنرال فرانكو، ومع الشكل الديمقراطي الجديد لدولة إسبانيا في صور من الحكم الذاتي، حيث القومية الإقليمية لبعض المناطق الإسبانية، هذه الظاهرة أتاحت الفرصة من جديد لكي نرى موضوع الأندلس في أدب هذه الأقاليم، وقد بدت هذه الظاهرة قوية في جنوب إسبانيا.

يستهووي موضوع الأندلس وحضارتها الأقاليم ويحظى بقدر كبير من التعاطف من قبل كثير ممن يكتبون فيه، كما يقول جوته أي شخص لديه موطن حلم، ونلمس هذا الدور الملهم للشرق بشكل خاص في القرون الوسطى.

فلقد تأثر أدباء الرومانسية الأسبان بالشرق القادم من بوابة الأندلس أو المغرب، وانعكس هذا في الشعر والأدب المسرحي⁽³⁾. وجددت الرومانسية في أهميتها الأوروبية بشكل عميق مصادر الإلهام الأدبي مؤكدة على طموحها في الاكتشاف والتجديد واكتشاف الآخر عبر التاريخ⁽⁴⁾.

تعبّر الأندلس عن مأساة قديمة وتمثيلٍ لكيوننة في عالم يعجّ بالحركة ويغيبط بجوهر الحياة⁽⁵⁾. ولن تعود ذكرى الأندلس وتاريخها وماضيها الأصيل إلا من خلال استحضارها على المستوى الإبداعي، حيث شكلت بعدا أخلاقيا، وكانت معادلا موضوعيا لبعض الحوادث في العصر الحديث، وقد كان لظهور النزعة الواقعية في الأدب العربي أثر كبير على اختلاف النظرة إلى الأندلس، وبدأ هذا الموضوع يظهر كبعد حضاري لأولئك الأدباء الذين يبحثون عن هوية، ولا نجد الأندلس العربية الوجه المضاد والمقابل لإسبانيا الحديثة، بل نجد إسبانيا الحديثة تطورا للأندلس العربية ونرى في الأندلس العربية مزجا حضاريا بين الشرق والغرب، ونزار قباني الشاعر الذي رأى في إسبانيا هاته الرؤية المختلفة⁽⁶⁾.

ومسّ الشرق كانشغال عام الشعراء الرومانسيين في جميع أنحاء أوروبا، واستدعي في تخيلات مختلفة، حيث طرح فيكتور هوجو أسئلة عدة عن هذا الشرق لماذا موضوع الشرق؟ ما قافية الشرق؟... هي أسئلة طرحها على قرائه المستقبلين في مقدمة مجموعته "الشرقيات" فقد عرضت تجاوزت الرومانسيين.

واهتم هوجو بإسبانيا لسنوات عمره الأولى التي قضاها هناك، فتغنى بسحرها ومنازلها وأسواقها فالممل الذي أصاب أوروبا القرن الثامن عشر وعدم رضاهم بعصرهم دفع الرومانسيين الفرنسيين للبحث عن ملاذ لهم بعيدا عن الواقع، فوجدوا أن إسبانيا هي الوجهة والمقصد الذي أرادوا اكتشاف كل جوانب الجمال فيه وتعدد أوجهها، شعبها، مناظرها الطبيعية ومدنها⁽⁷⁾.

ولقد تحدث غوته عن هذا التوجه نحو إسبانيا في كتابه "بداية" و قد كان الهاجس المركزي للشاعر في هذه المرحلة من حياته هو تجديد قصائده ليتحول الشرق إلى أفق جمالي، وهذه القصائد تمثل التحقق الفني للجماليات الشرقية العربية الأندلسية التي تحققت في المدينة الإسبانية. والشرق حسب رؤية هوجو يمثل إسبانيا الإسلامية (الأندلس).

ترسّخ هذا الشرق في ثقافة فيكتور هوجو من خلال اطلاعه على الرسائل الفارسية لموتسكوبو ألف ليلة وليلة، ولكن التيار الشرقي لم يتجل إلا في القرن التاسع عشر، وأعلن فيكتور هوجو هذا كانشغال عام، ولا يمكن الحديث عن الاستشراق دون ذكر شرقيات هيجو، ففي هاته المجموعة التي نشرت عام 1829، حديث عن المكانة المهمة لليونان، دون إغفال دور الترك، العرب وإسبانيا تكملان هذه الرحلة، وهذا بالنسبة للإمبراطوريات كما للأدب، فالشرق أدى دورا في الغرب⁽⁸⁾.

ورغم الفارق الزمني بين هوجو وأراغون إلا أننا نجد في مجنون إلزا لأراغون إشارات إلى الأندلس، والقصيدة تتعلق بالأيام الأخيرة للحكم العربي الإسلامي في غرناطة، حيث جعل من قصة المجنون صورة من قصة شعب وبلد ومدينة، وحاول إعطاء صورة عن تاريخ إسبانيا العربية الإسلامية⁽⁹⁾.

رغم اختلاف وتباعد الفترة الزمنية بين الشاعرين إلا أننا نجد أراغون بالرغم من أنه متأخر عن هوجو إلا أن الأندلس لا زالت تشكل تيمة عربية مستدعاة في نص غير عربي.

ويمكننا قراءة القصائد من خلال ثلاث مرجعيات:

1- المرجعية الدينية

2- المرجعية الأدبية والثقافية

3- المدن الإسبانية، كمرجعية والتي عرفها الشاعر خلال مرحلة الطفولة، وأصبحت آثارها العربية الموجودة في ذلك الفضاء الغربي جزءاً من مكونات مخيلته، وتحولت إلى فضاء مجازي يشيده الشاعر بالكلمات ليبرز مواقفه اتجاهها واتجاه ما ترمز إليه من قيم وتواريخ.

ففي هاته الفترة المبكرة من حياته تعاضدت مجموعة من التجارب والخبرات لتولد في ذهنه ومخيلته مشاعر الإعجاب والافتتان بذلك الشرق⁽¹⁰⁾.

يقول جورجيات واشتل: "إسبانيا هي الموضوع الذي يطرح مثل شيء واضح، في جميع المجالات إلا أن هذا الموضوع لم يحض بدراسات دقيقة، إلا أنه كان موضوع أطروحة أو أطروحات كثيرة، أو عمل مجموعات"⁽¹¹⁾. وارتبط الموضوع الإسباني العربي بالشعراء الرومانسيين لماذا؟ لأنهم كانوا مغتربين يبحثون عن ذواتهم وعن هويتهم.

ونص الشريقات بصرف النظر عن المضمون الاستشراقي في جزء منه يتحدث عن تجربة الشاعر البريطاني لورد بايرون الذي كانت أعظم قصائده تلك القصيدة العملية التي تمثلت في ذهابه إلى اليونان مساهماً في حرب شعبيها التحريرية ضد العثمانيين، وكرس بقية القصائد للحديث عن الشرق وسحره وقصوره، ونجده يمد اهتمامه حتى يشمل إسبانيا الأندلسية كجزء من هذا الشرق فيغوص في الغرب الاستشراقي التقليدي وسط الديكورات المتخيّلة الساحرة⁽¹²⁾.

1- فيكتور هوجو الأندلس: أدت طفولة هوجو أيضاً دوراً في هذا الشغف والرغبة لأن أول ذكرياته كانت عند إقامته في إسبانيا، ففي رحلته بقي محتفظاً بأسماء المدن، أخذ انطباعات بصرية، أحاسيس وتأثيرات ملونة تركت أثرها في أعماله، وإلى جانب ذكرياته نجد قراءاته المختلفة التي جعلت لديه معرفة واسعة بالشرق، وقرأ القرآن، وألف ليلة وليلة، والتوراة، والكتب المقدسة...، تحدث بول هزر عن تسلط الحلم الإسباني عند فيكتور هوجو، وهذا ليس بالقليل لأن إسبانيا موجودة في كل أعماله، فقد أعطى الشاعر وصفاً ممتعاً للأندلس "إسبانيا الإسلامية"، وهذا في غرناطة، ويصور هوجو سحر وفتنة المدينة الأندلسية.

وتفاعلت مجموعة من العوامل ليخرج بتجربة غنية عن رحلته إلى إسبانيا وإقامته العابرة في مدريد، ولاشك أنها تدخلت بقوة في تشكيل وعي الشاعر ومخيلته الإبداعية خاصة وأنها غذت حياته بعيد جديد مختلف لم يكن له أن يكتسبه دون هذه الوقائع، فإسبانيا التي تنقل الشاعر بين مدنها وقراها وشاهد حدائقها وقصورها ومساجدها وكنائسها ستمثل عنده، وعند غيره من الرومانسيين الثمرة الأجل للقاء والتفاعل بين حضارات الشرق والحضارة الغربية. ولقد بينت أهم الدراسات المقارنة في هذا الموضوع بالذات كيف تحولت إسبانيا إلى امتداد واقعي ومتخيل للشرق الذي فتن به كثير من الأدباء والفنانين الرومانسيين قبل فيكتور هوجو وبعده⁽¹³⁾.

وتحديداً هناك ثلاث قضايا تستحق التوقف عندها نظراً لأهميتها الاستثنائية في تعزيز الفرضية الرئيسية لبحثنا هذا، القضية الأولى أن نصوص هذه المجموعة تعدّ في مجملها علامة تحول جذري بدأ يطرأ على وعي الشاعر وكتابته وهو في منتصف العقد الثالث من عصره.

والقضية الثانية وتخص دور "المرجعية الشرقية" في هذا التحول، وهو دور لا يتوقف عنده أ. موروا طويلاً مثله مثل غيره من النقاد الفرنسيين الذين كتبوا عن ف. هوجو. فمقدمة الديوان ذاتها تكشف أن مرجعية هذه "الثورة

الجمالية"، كما سيسميها بورخيس بعد حوالي قرن ونصف، هي في حقيقة الأمر مشرقية أو عربية إسلامية أكثر من كونها ألمانية أو إنجليزية. هاهو الشاعر نفسه يلح على هذه المرجعية في ثلاث إشارات بالغة الدلالة إذ لا يمكن قراءة نصوص هذا الديوان من دون اعتبارها محددًا أساسياً لعمليات التفهم والتفسير والتأويل؛ الإشارة الأولى تتمثل في مقولته الشهيرة "في عهد لويس الخامس عشر كان الجميع هيلينيين واليوم نحن كلنا مستشرقون" مبرراً القول بكثرة الباحثين اللامعين في مختلف أنحاء فرنسا ممن تخصصوا في أدق تفاصيل اللغات والثقافات الشرقية "من الصين إلى مصر (14)".

ظل فيكتور هوجو مفتوناً بتلك المدن الإسبانية ودعا إلى شعرية جديدة تضاهي جماليات التنوع في تلك المدينة المتعددة الملامح والآثار والهويات وكأنها الفضاء الأمثل لالتقاء وتفاعل الشعوب والقارات والحضارات. فالمدينة هنا ليست مجرد فضاءات خارجية يتم وصف مكوناتها الطبيعية والعمرانية من منظور الإعجاب بها أو الحنين إليها، بل تتحول عند الشاعر الرومانسي الكبير إلى مجاز كلي للقصيدة، وكذلك للشعرية الجديدة التي يدعو إليها ويجرب كتاباتها ويحلم بالمزيد منها. ولعل هذه الرؤية تبدو غريبة تماماً على الشعرية الرومانسية التي تعلي من شأن الأرياف والغابات والصحاري بقدر ما تحط من شأن المدن إجمالاً.

تراوح حضور الأندلس في شرقيات فيكتور هوجو بين صورة الأندلس الفاتح المتفتح، وفي بناء صرح الحضارة في قرطبة وإشبيلية وغرناطة، وصورة أخرى تمثلت في طبيعة الأندلس الجميلة والفردوس المفقود بعد غروب شمس الإسلام والعروبة عنه.

ويمكن تصنيف عناصر حضور واستدعاء الأندلس في شرقيات فيكتور هوجو في حضور الأمكنة وفي استدعاء الشخصيات التاريخية والأدبية.

1- الحنين:

كان الهاجس المركزي للشاعر في تلك المرحلة من حياته تجديد قصائده، ليتحول الشرق إلى أفق جمالي، ومن هنا جاءت بعض قصائد المجموعة بمثابة التحقق الفني لتلك الجماليات العربية الإسلامية التي تحققت في المدن الإسبانية.

وفي نص بعنوان "غرناطة" grenade تتجلى لعبة التمثيل المعقدة هذه بصيغ متنوعة فيها من الرهافة بقدر ما فيها من العمق وتتجه في مجملها إلى التعبير عن ذلك الموقف العاطفي المشبوب الذي يثوي وراء النص الشعري ووراء تلك المقدمة النظرية التي تغري وتغوي به. ففي البدء يورد الشاعر إسبانياً يقول:

من لم ير إشبيلية

لم ير أعجوبة قط (15).

إلى "غرناطة" التي تبدو الأجل من بين كل المدن الأندلسية الجميلة، فالنص هنا أيضاً يميل إلى الطول إذ يقع في خمس صفحات لكنه يعتمد بنية اللوحات أو المشاهد القصيرة المتتابعة التي تذكرنا بقوة "الذاكرة البصرية" عند الشاعر من جهة وبموهبتة في رسم اللوحات التشكيلية اعتماداً على اللونين الأسود والأبيض حيث يعود هنا إلى ذكر وتعداد خصائص الأمكنة، حيث يتحدث عن محاسن غرناطة ومفاتها ترجمة إيهاب مصطفى (16)

ففي المقطع الأول نقرأ:

ليس هناك مدينة

تتنافس بلا جنون

مع غرناطة الجميلة

أو تستطيع أن تبرز سحرها الشرقي

تحت سماء أكثر بهجة من سماء غرناطة⁽¹⁷⁾.

أثارت غرناطة بجمالها إعجاب الشاعر وتحريك ريشته مبدعا، وغدت غرناطة بمعمارها وحدائقها منشأ لنزعة رومنسية استشرافية، صبَّ فيها الغرب رغبته في ابتكار شرق سحري خلاب.
يقول:

تنتشر النساء والزهور عند كل أمسية صيف في سهول غرناطة.

العرب أجدادها، لها وحدها مغامرين مخاطرين بين آسيا وإفريقيا

لكن غرناطة كاثوليكية لأنها تستهزئ بهم، فهي مدينة جميلة...⁽¹⁸⁾.

وتظهر غرناطة بوصفها كائنا حيا (امرأة)، ويبرز أنوثتها من خلال استخدام صفة جميلة وخاصة لما ربطها بالتفاحة، والتفاح في الأسطورة مرتبط بالجمال، ويشير أيضا إلى العمارة العربية.
إلى أن يقول: التجانس، ألف الأقواس العربية،

يزرع الجدران البرسيم الأبيض!

غرناطة المزيد من العجائب

الذي لديه بذور القرمزي

ثمرة جميلة من الوديان بها؛

غرناطة، واسم على مسمى،

عندما أشعلت الحرب⁽¹⁹⁾.

ويعطي الشاعر هنا وصفا لطيفا للمدن الإسبانية، وخاصة في الشرق، وهكذا في غرناطة هوجو رسم مدينة اليكانتي، وبعد هذا الوصف تتلاحق أسماء المدن الأسبانية مقرونة بأبرز ما يميز كلاً منها من مظاهر عمرانية أو طبيعية تكشف كلاً عن جمال هذه المدن التي لن تبلغ مرتبة غرناطة، حيث يقول:

ومدينة سيجوي كائنة على المذبح

حيث نقبل سلمه

يأتي بسيل من قمة الجبل

ومدينة ليريس لها بروج

ومدينة برشلونة في قمة عمود

تتسلط منارتها على البحر

وفي المقابر القديمة

تحتفظ مدينة تودال بصولجانها الحديدي

ومدينة تولوز لها مسابك داكنة

والتي تشبهوهي داخل الضلال منافذ جهنم

ومدينة اليكانتي ذات الأجراس المختلطة مع الصوامع

وكومبوستال لها قديسها، وقرطبة ذات المنازل القديمة

ومدريد لها منزناريس
 ولباس مغطاة بالأموج
 لأن جسورها الجميلة هي
 بالنسبة للبربر المغاربة كالقنوت للرومان
 وفالنس لها أجراس ثلاث مائة كنيسة
 والقنطرة المتقشفة تسلّم نسمايتها إلى الريح
 وسلاما نكوهي تضحك تجلس على ثلاث تلال
 تنام على صوت آلة المنولين
 تورنوز هي غالية لدى القديس بيار
 والرخام مثل الحجر⁽²⁰⁾.

ثم يتحدث عن قصر الحمراء وانبهاره بهذا الصرح التاريخي الإسلامي، ويعتبر هذا القصر أجمع تجسيدا للحضارة الإسلامية ومثالا على الفن المعماري والجمالي الإسلامي العربي حيث يقول:

قصر الحمراء، الحمراء! آه الحمراء
 هذا القصر الذي شيدته العبقريّة كالحلم...
 تحيط به قلاع ذات شرفات مزخرفة عتيقة
 وفي الليل تتعالى من حوله أصوات ساحرة
 تتأجج القمر إذ يطل عبر ألف مقرصنة⁽²¹⁾.
 وتستولي هنا النشوة على الشاعر فتصبح لهجة هتافا

يصف الشاعر هنا قصر الحمراء عندما يمر ضوء القمر عبر نوافذ القصر، والجدران تزرع البرسم، ويمثل هذا أيضا استحضار الهندسة المعمارية المغربية.
 ثم يقول:

عند كل أمسية الصيف تنتشر النساء والزهور في سهول غرناطة. العرب أجدادها، لها وحدها مغامرين
 مخاطرين بين آسيا وإفريقيا

لكن غرناطة كاثوليكية لأنها تستهزئ بهم، فهي مدينة جميلة⁽²²⁾.

يتحدث هنا عن مغامرات الفاتحين العرب وتجوالمهم بين إفريقيا وآسيا، ولكن تظهر في هذا المقطع بأنّ هو جو يبقى ذا نزعة مسيحية يقول:

جأبوا آسيا وإفريقيا، لكن
 تبقى غرناطة كاثوليكية.

يشير بعض النقاد الفرنسيين إلى أن تجربة الحياة القصيرة في إسبانيا ولدت في الشاعر نزعة الافتتان "بفنون القرون الوسطى" لكن نصوصه من جهة ووقائع التاريخ المتعلقة بحياته من جهة ثانية تكشف لنا أن أكثر ما فتنه هو فنون الحضارة الإسلامية حينما كانت تعيش قرون ازدهارها ونهضتها، ثم إن فنون الباروك والروكوكو التي شاهدها الشاعر في إسبانيا ليست هي التي شكلت مركز الجاذبية في أعماله الشعرية على وجه الخصوص، لأنّ

ما كان يبحث عنه ويؤسس له، هو تحديداً جماليات التنوع والاختلاف التي لا تتجلى في مكان أكثر من هذه المدن الإسبانية ذات الذاكرة التاريخية العريقة والهوية الحضارية المتعددة.

من هذا المنظور لم يعد من المستبعد أن تتخذ تمثيلات المدن الشرقية الواقعية في مجملها بعدها الدلالي الأشمل في سياق علاقات تقابلها مع "المدن الغربية" التي تمثلها المدن الفرنسية في هذا السياق. فالشاعر لا يتحدث عن باريس مثلاً، وفي هذا الديوان تحديداً، إلا وهي تبدو إطاراً كئيباً لحياة كئيبة يحاول الخلاص منها بالترحل المتخيل عبر تلك المدن الشرقية التي تبدو له أكثر جمالاً وبهجة وفتنة حتى في أكثر السياقات تراجيدية. ولذا فإن هذه الدلالات تتبثق من حزن الشاعر وهو يعود من رحلته الرمزية إلى الشرق المتخيل ليعيشو يعاني في واقعه الكئيب، أما فضاء الإقامة والحياة والكتابة الأمتل عنده فهو المدينة الإسبانية، وبالأخص غرناطة مدينة الجمال المطلق، وهو جمال شرقي في جوهره، إننا أمام رؤية لا يمكن تفهمها بعمق ودقة إلا حينما نقرأ نصوص هذا الشاعر الشاب في ضوء التحولات الجمالية والفكرية التي بدأ الرومانسيون يتجهون إليها ويبشرون بها خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر. ففي تلك الفترة بدأ المبدعون الشباب في مختلف المجالات يعلنون من شأن زيارة مدن الشرق واقعياً أو خيالياً لأنها بأجوائها المشمسة وأثارها العريقة وعلاقاتها الحميمة البسيطة وتكويناتها الغنية كانت تمثل النقيض الواقعي والرمزي للمدن الأوروبية المعتمدة التي اخترقتها قيم المنفعة والتقنيات الإنتاجية الحديثة التي زادت من كآبتها وصرامة علاقاتها وقساوة الحياة فيها. وفي كل الأحوال فإن تمثيلات هذه الفضاءات العمرانية لا يمكن أن تنفصل عن تمثيلات البشر الذين يسكنونها وبناء عليه لا بد أن تكتسب دلالاتها أبعاداً جديدة من هذا المنظور.

ويعيد الشاعر إبداع الأندلس كترميمات أثرية باعنا الروح في الشخصيات الأندلسية، السكان القدامى لتلك الجدران الشعرية التي هي قصورهموبيوتهم الجميلة.

وتتجلى صورة الأندلس أيضاً في قصيدة: وداع المضيقة العربية

"Adieux de L'hôtesse arabe"

لأنه لا شيء يمنعك في هذا البلد السعيد

لا ظل النخيل أو اصفار الذرة،

الوداع أيها المسافر الأبيض لقد أسرجت بيدي

فرسك ذا العين الشجاعة

خوفا من أن يطرحك فوق حجارة الطريق

رجلاه تحفر الأرض، ردفه جميل المنظر

تصقله موجة سريعة

إنك تمشي من غير انقطاع

ألست من أولئك الذين يجعلون حداً لأرجلهم الكسلى

سقف من الأغصان أو القماش

ومنهم من يحلم من غير عملويستمعون إلى القصص

ويتمنون في الليلهم جالسون أمام الباب

الذهاب إلى النجوم

وإذا رجعت متسلفاً لإيجاد هذه الضيعة الصغيرة

وهذا الجبل الأسود الذي من بعيد، يبدو وكأنه ظهر جمل
 لإيجاد ضيعتي الصغيرة الوفيّة
 فكّر في أعلى السطح مثل خلية العسل
 التي لها باب واحد تفتح على السماء
 من الجهة التي يأتي منها طائر السنونو
 إذا لم ترجع فكّر قليلا وأحيانا
 في نبات الصحراء والعرقوصوت لطيف
 يرقص حفاة الأرجل فوق الكثبان الرملية
 أيها الشاب الوسيم الطائر الجميل العابر
 تذكر لأنه ربما أيها الأجنبي السريع (43).

وتجلت صورة الأندلس أيضا من خلال قصيدته: العنب البري

"LES BLUETES" يقول:

تثير سحره المدينة الأندلسية
 في حين نجوم عديم الرائحة
 التي كانت مختلطة مع المسامير الشقراء
 اللازورد المينا الزرقاء من حياته
 الأخاديد في دوري الحصاد،
 من قبل، المهجرة من الزهور،
 مجالات لها المناجل خضع
 بين المدن الأندلسية،
 وهي ليست مدينة مسيحية،
 لا جرس الدير،
 في الأب الأقدس والملك،
 حيث، مع سانت أمبرواز،
 ويقول:

لؤلؤة الأندلس،

أليس هي من بينافيل

أليسوهي تنجز عسلها

لكل وردة تمّ اختار نحلة

هذه الأيام، للأسف ذهبت

لكن تذكرها بين العائلات

وجاء أجنبي في المدينة،

شابويتكلم باحتقار

هل هو بربري مغربي غرناطي؟

واحد من مورسيا أو إشبيلية؟

لا أحد يعرف أليس المسكينة

كانت محبوبة من طرفه ثم أحبته

إنه الوادي الصغير لإكساراما

وكانت خطيئتهم شريك الحلو.

في المساء، تحت السماء المرصعة بالنجوم،

كلاهما يتجولان من خلال الخميلات

ثم يرسم صورة لمثلي الجنس الشابة الإسبانية مرة واحدة اجتمع:

تحت شجرة الحرير وشجرة البرتقال

ترقص الأندلسيات السمراوات

بالأبواقوالقيتارات الممزوجة

ينشط الرقصات المربعات

مختلطة الذرة مع القيثارات⁽²⁴⁾.

تمثل غر ناطة بالنسبة للشاعر مكانا سحريا، فقد استهوته بجمالها وروعة مبانيها،

وفي أشباح: fantomes

وأشباح هي فرحة الأعياد التي يتم تمييز:

ثم كانوا المجوهرات ولائدوعجائب

أحزمة لذاكرة مع امتداد التاملات

أخف وزنا من النحل أجنحة الأنسجة

الأكاليل، وأشرطة وملء السلال

وغنى هوجو فرحة طفولته من الأرضوالدم، كاثوليك إسبانيا والمستعربين إسبانيا القيثاراتوالقصود العربية:

في إسبانيا التي أحب

عند الفجر، الربيع⁽²⁵⁾.

وفي قصيدة ضوء القمر ترجمة طاهر تونسي يقول:

كان البدر مشرق الجبين ينتقل على ندى الأمواج

وقد فتحت النافذة ذراعها لخطرات النسيم

فجعلت الملكة تدنو إلى البحر وهو يتكسر

ويطرز مطارف جزائره السوداء بنقوش أمواجه المفضضة

فهوى العود من يدها وهو يرن... فأصغت فسمعت صوتا أبج يردده الصدى.

يبقى النص الأندلسي نصا مفتوحا نقرأ فيه حال الأندلس في بيئتها وظروفها الأدبية والسياسية والاجتماعية

والفكرية، قراءات مختلفة...

خاتمة

تعتبر الأندلس فضاءً تاريخياً شهد بروز العديد من التصورات والتمثيلات، فشكلت العوامل التاريخية والاجتماعية وتباين الأنساق الثقافية صوراً جماعية ذهنية تجلت في الشعر العربيوغير العربي وعلى وجه الخصوص الفرنسي.

التقت إليه الشاعر لبحث عن مهمة الغرب لتخلق في شعره.

ولقد أوضحت لنا قراءتنا لديوان "الشرقيات" عن وجوه من التأثيرات الإيجابية الخلاقة للثقافة العربية الإسلامية عند فيكتور هوجو نزعماً أنها من أسباب تميز هذه المجموعة الشعرية تحديداً، فالتأثيرات الشرقية هي التي عززت وعيه ووجهت أفكاره، وهي من بين أقوى العوامل التي شكلت وعيه الذهني وخياله الإبداعي.

يفهم هوجو التراث العربي الإسلامي من وجهة نظره كشاعر، ومن وجهة نظر أخرى نجد الشاعر الفرنسي رولان في la chanson de Roland، فهذه القصيدة تمثلت بعداء مسلمي الأندلس، واللقاء بين الإسلام والمسيحية. حاول فيكتور هوجو إعطاء صورة جديدة للشرق حيث تغيرت تداعيات صورة الشرق من عالم صحراوي تسوده الوحشة إلى عالم غني بأمراء وخلفاء وحريم وحكاماء...

الفهرس:

1- فيكتور هوجو (26 فبراير 1802م-22 مايو 1885) أديبو شاعر ورسام فرنسي، من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية، اشتهر بسبب أعماله الروائية التي ترجمت إلى كثير من اللغات، ولد في بيسانسون في إقليم دويس شرقي فرنسا، عاش منفياً خمسة عشر عاماً خلال حكم نابليون الثالث، وتحديداً من عام 1855حتى عام 1870، أسس جمعية الأدباء والفنانين العالمية، وأصبح رئيساً فخرياً عام 878 توفي في باريس في 22 مايو 1880م، أشهر أعماله أعماله: أهدب نوتردام، البؤساء، رجل نبيل، عمال البحر، آخر يوم في الحياة، رجل محكوم عليه بالاعدام، الشرقيات. <http://ar.wikipedia.org/>

2- Victor Hugo: les orientales, illustrations par GERARD SEGUIN, paris, J. HETZEL, libraire-éditeur 18rue Jacob.

3- Arie Schippers: Spanish Hebrew poetry and arabic literary tradition Arabic htemes in Hebrew andalisan poetry, E.J.Brill, 1994, p 65.

4- خوان بدرو سالود. نادر الجلاذ: حضور الشرق في الأدب الإسباني، ميدل ايست أونلاين، 2011/10/30.

5- Daniel Henri Pageaux: romantisme francais et culture hispanique ,contribution à l'etude des lettres francaises dans la premiere moitié du XIX eme siecle, p 14.

6- البياتي(عبد الوهاب): الشاعر العربي المعاصر والتراث، مجلة فصول، م، 1، ع 4، يوليو 1981من سليمان العطار، التراث بين الحضور والغياب، مجلة فصول القاهرة مج 13، ع 3، خريف 1994.

7- الأندلس في الرواية العربية والإسبانية، ص 32.

8- Daniel Henri Pageaux: romantisme francais et culture hispanique, p 17, 18.

9- Oula zaroual: la passion de l'orient, 1-^{eme} L1, dossier d'histoire des arts, page 12, 13.

10- Victor Hugo et l'Espagne» par Georgette Wachtel, article en format PDF en ligne à partir du lien: www.aplettres.org/Victor_Hugo_et_L_Espagne.

11- محمد بكري: مقالات صحفية "جريدة الحياة": الشرقيات لفكتور هيجو، شعر مبكر يتأرجح بين التقدم والرومنطقية، الأحد 3 تشرين الثاني (نوفمبر) 2013.

12- سعيد(إدوارد): الاستشراق: ترجمة كمال أبو ديب، 1981.

13- dénis brahmi: arabes des lumières et bédouins romantique, le sycomore, paris 1982, l'Espagne romantique j. r. AYMes; paris 1983).

14- les orientales, p30

15- epid, p 30

16- epid, p 30

17- Inga Walc-bezombes:l'orient dans la poésie romantique polonaise et française: jeux de mémoires et de reflets.

18- epid, p 30.

19- epid, p 30-31.

20- epid, p 31.

21- epid, p 31.

22- الشرقيات، ص ص 26-27.

23- الشرقيات، ص ص 31-32.

24- Achira kamel: quelque notes sur l'orient dans l'ouvre poétique de victor higo, EGYPTE – SOUDAN. 198.

25- الشرقيات، ص 32.